

21 كانون الأول 1998 | المفكرة الأندلسية (2):  
يوميات دمشق في قرطبة  
العز العربي نصفه جامع نصفه كنيسة!

Page 1:6

«لما دخل يزيد الرقاشي على الخليفة عمر بن عبد العزيز،  
قال عمر: عطني يا يزيد.  
فقال: أعلم أنك لست أول خليفة يموت.  
فيكى عمر وقال: زدني يا يزيد.  
فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم إلا أب ميت.  
فيكى وقال: زدني يا يزيد.  
فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الموت موعد.  
فسقط الخليفة مغشياً عليه.»  
«سراج الملوك»  
لمحمد بن الوليد الطرطوشي

عندما وصلت إلى باب المسجد الجامع في قرطبة، سألت فردريكو، أحد الأدلاء السياحيين المنتشرين في ساحة المسجد المزروعة بأشجار البرتقال والليمون والنانج المتدلّة منها ثمارها، إذا كان يعرف أين يمكنني أن أجد عبد الرحمن الداخل. كان الوقت بعيد الظهر بقليل، وأفواج السياح تخرج من المسجد لتندلف إلى زواريب الحي اليهودي، الذي فيه الجامع، زائرة المطاعم والمقاهي والدكاكين المنتشرة في الأزقة التي تحيط بهذا المبنى التاريخي الرائع.  
قال لي فردريكو، بإنكليزية سياحية ركيكة، أنه شخصياً لا يعرف أحداً بهذا الاسم ولم يسمع به. لكنه أشار إلى أن هناك قنصلية عربية في قرطبة لا يعرف أي بلد تمثل، وهي على مقربة من الكنيس اليهودي. وأردف، يمكن أن تسأل عنها هناك. إلا أنه نصحني أن لا أطرق بابها إلا بعد الساعة الخامسة مساءً، لأن عبد الرحمن الداخل قد يكون مستسلماً قبل هذا الوقت للقبول، وليس من الآداب الأندلسية إزعاج أحد وقت «السياسة».  
قلت: إذا كنت لا تعرف عبد الرحمن الداخل، فهل تعرف عبد الرحمن الأوسط أو عبد الرحمن الناصر. ألم يمروا كلهم من هنا؟ أليسوا هم الذين شيّدوا هذا المسجد؟ أليس لهم مقامات في هذا الجامع؟  
أجاب: سبق وقلت لك إنني لا أعرف أحداً باسم عبد الرحمن الداخل كما أنني لا أعرف الأوسط ولا الناصر. ربما مروا جميعهم من هنا. لكن ليس على أيامي. لماذا لا تتصل بأحدى القنصليات العربية مستفسراً؟  
قلت: لا أعرف أن للأندلس سفارة اليوم في إسبانيا، ولا للأمويين قنصلية في قرطبة. لكنني أعرف أن قرطبة تشبه دمشق، وأن عبد الرحمن الداخل قد اختار قرطبة عند الفتح العربي، لأن موقعها يشبه إلى حد كبير موقع دمشق. فدمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى، وقرطبة تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، ونواعيرها تشبه نواعير الغوطة القديمة. ويطل على دمشق جبل قاسيون، كما يطل على قرطبة جبل العروس كما سماه العرب، أو «سييرا مورينا» – أي الجبال السوداء. هذا إلى جانب تشابه البيوت بين المدينتين وأسلوب الحياة والمعيشة، وطبائع الناس ووجود النصارى فيها، حتى قال الجغرافيون العرب إن «قرطبة شامية في هواها».  
قال: إنني لم أفهم نصف ما تعنيه من هذه السفطانية الجغرافية التاريخية. أوضح كيف يمكنني أن أساعدك؟

ولعلّ فرديكو استدرك الموقف، لما رأى على وجهي ملامح ابتسامة ساخرة، فسألني: مَنْ هم عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر حقاً؟ وماذا يعملون؟ قلت له: أمراء عرب من بني أمية جاءوا قرطبة فاتحين قبل ما يزيد عن خمسمئة سنة، وبنوا هذا المسجد الجامع، الذي وضع قرطبة على خارطة الحضارة العالمية في العصر الوسيط، وحول هذه المدينة اليوم إلى قبلة سياحية ندر وجودها. أما ماذا يعملون اليوم، فاعتقد أنهم تقاعدوا مقيمين في أحد بيوت قرطبة القديمة، الذي كان عبارة عن قصر اسمه الزهراء، الذي أصبح فيما بعد اسم مدينة، يتأملون انهيار الأمجاد العربية دون أن يبكوها، وقد كانوا من بناتها. لم يفهم فرديكو معظم ما قلته، ظاناً – عن حق – بأنني سائح عربي مهووس بالتاريخ جاء ليتناقل عليه في يوم حار ازدحمت فيه أفواج السياح (وجلهم من الأوروبيين وبعض اليابانيين ولم أتبين من بينهم عربياً واحداً) ليعكر عليه صفو روتينه التقليدي.

قلت لفرديكو: أتقبل دعوتي إلى الغداء بعد انتهاء دوامك؟ فأنا عربي من بني أمية جئت من بلاد الشام، البلاد التي قدم منها كل من عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر، زائراً بالطبع لا فاتحاً، وبوسائل المواصلات الحديثة لا فارساً ولا راجلاً. فأنا أحتاج إلى دليل سياحي معي ولوحدي، يستطيع أن يجيب على بعض حشريتي التاريخية. وقبل أن يجيب فرديكو، كنت قد نفحته حفنة من «البيراتا»، التي أسفرت عن ابتسامة عريضة تعني القبول. وأعطاني فرديكو موعداً في مقهى قريب.




---

[Profile](#) | [Catalogue](#) | [Posters](#) | [Search](#) | [E-mail Us](#) | [Contact Us](#) | [Home](#) | [Annuqad](#) | [Weekly Articles](#) |

21 كانون الأول 1998

المفكرة الأندلسية (2):

يوميات دمشقي في قرطبة

العز العربي نصفه جامع نصفه كنيسة!

Page 2:6

## البحث عن أمجاد

كان مقهى «سان بدرو» في زاوية زنقة – حسب التعبير المغربي لما نسميه نحن الزقاق أو الزاروب – يطل على ساحة صغيرة مرصوفة بالحجارة من النوع التي تسير عليه عربات الخيل، والتي لها عدة مواقف في زوايا الشوارع، لتنتقل السياح في جولات بين آثار المدينة. اشتريت جريدة إنكليزية وانتظرت وصول فرديكو، وأنا جالس على رصيف هذا المقهى وعشرات السياح يمرون ويحتلون الطاولات من حولي. وقلقت لتأخر فرديكو، حتى خشيت أن يكون قد قرر أن يخلف بالموعد. وندمت على دعوته إلى الغداء. وحاولت أن أستجمع ملامح وجهه، التي يبدو وكأنها اختفت من ذاكرتي. وأدركت كم شح نظري، لكنني قلت لنفسي لا بد من إنه سيعرفني، فليس في المكان من له ملامح عربية واضحة سواي، خاصة وأن المقهى قد غصّ بالسياح اليابانيين.

وأطل فرديكو، بعد قلق قصير، وكان قد نزع لباسه الرسمي (يونيفورم) كدليل سياحي، وعرفني قبل أن أميزه، وسحب كرسياً وجلس قبالي. وما إن التهمنا «البابلا» وتبادلنا الآخاب من «السانكريا»، حتى بادرني فرديكو: لماذا تسأل عن عبد الرحمن الداخل أو الأوسط أو الناصر، وماذا يعنون لك؟

قلت: لهذا الأمر قصة طويلة، سأختصرها لك، بأنني أتيت قرطبة قادماً من غرناطة، حيث بحثت هناك عن أبي عبد الله الصغير، آخر ملوك العرب من بني الأحمر، الذي سلم آخر دولة عربية في الأندلس إلى إيزابيلا وفرديناند، ملكا إسبانيا، من دون معركة واحدة. فأسس بذلك مدرسة الذل العربي التي نعيش في كنفها منذ 16 كانون الثاني 1492، يوم سقوط غرناطة. وكان ذلك التاريخ آخر يوم عربي مشهود في إسبانيا. وبذلك يكون أبو عبد الله الصغير مؤسس الذل العربي كما نعرفه اليوم، والذي بدأ قبل خمسة قرون. لقد حاولت أن أجده في غرناطة لأقتله، لكنني عدت وعفوت عنه عندما تعزيت بما تركه بنو الأحمر من آثار وأمجاد، أروعها بلا شك قصر الحمراء وتوابعه(1).

وسألني فرديكو، وقد بدا مشغول البال: هل تبحث عن عبد الرحمن الداخل أو غيره من عباد الرحمن لتقتلهم أيضاً؟ قلت له مبتسماً: لا، إنني أبحث عنه لأضمه وأقبله وأهنئه، لأنه هو الذي أسس العز العربي في الأندلس، ولأنه الفاتح الذي حقق لقاء الحضارتين الإسلامية والمسيحية في دولة عربية في الأندلس، جعلت من التسامح دستوراً، ومن هذا المسجد الجامع رمزها الخالد مدى التاريخ. أريده أن يحدثني كيف يمكن أن يؤسس عز عربي جديد على أنقاض ذل انزلق إليه آخر خلفائه من ملوك الأندلس. أريد أن أحدثه عن الأمي في عصر عربي لا يعرف إلا التعصب والقمع والعبودية، ولا يعرف إلا الدوس على تراث السلف الصالح الحضاري، فيعزز الطائفية والمذهبية بدل التسامح والتعايش، وينكر حريات الاجتهاد والبحث والعلم والتفكير، ولا يعرف من السياسة إلا الرأي الواحد. أما المساجد فلم تعد تشيد إلا للتحريض على أبناء الوطن الواحد.

قال لي فرديكو، بعد أن استمع إلى «مرافعتي» عن أسباب سؤالي عن كل عبد الرحمن: أتعرف أنني حامل ليسانس في التاريخ من جامعة إشبيلية، وخريج معهد الأدلاء السياحيين في مدريد، ولي مجموعة كراسات سياحية عن قرطبة (حملها معه). لكنني لا أستطيع أن أحدثك كثيراً عن أي عبد الرحمن ممن ذكرتهم، إنما أستطيع أن أحدثك – بشيء من الثقة كما أمل – عما تركه عبد الرحمن الأول والثاني والثالث في قرطبة من آثار ومعالم. من هنا قلت لك عندما سألتني بأنني لا أعرفهم.

## مشاركة الكنائس

ثم تابع فرديكو الحديث قائلاً: في عصر الفتوحات الإسلامية، نزل العرب في مدنهم التي صمموها وفي المدن القديمة التي افتتحوها، وصبغوها بالصبغة الإسلامية، وذلك بإقامة المساجد الجامعة التي كانت تتحكم في تخطيط المدينة وفي عمراتها. وبذلك كانت المساجد هي الأساس الذي يعتمد عليه العرب في إعطاء المدينة طابعاً

إسلامياً. إذ إن المسجد الجامع يصبح بمرور الزمن مركز المدينة وقلبها النابض. فمنه تتفرع الطرق الكبرى المؤدية إلى أبواب المدينة. وحول ساحته تقام الأسواق والحمامات والفنادق، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وتدرس العلوم الدينية وغير الدينية. ويسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهكذا أصبحت قرطبة مدينة إسلامية، وهكذا كان بناء المسجد الجامع أساس العمران في المدن الإسلامية.



---

| [Profile](#) | [Catalogue](#) | [Posters](#) | [Search](#) | [E-mail Us](#) | [Contact Us](#) | [Home](#) | [Annuqad](#) | [Weekly Articles](#) |

21 كانون الأول 1998

المفكرة الأندلسية (2):

يوميات دمشقي في قرطبة

العز العربي نصفه جامع نصفه كنيسة!

Page 3:6

أما في المدن المفتوحة – أي المدن التي لم يؤسسها أو بينيها العرب – فقد كان المسلمون يكتفون بمشاركة النصارى في كنائسهم، كما فعلوا في الشام حين شاطروا نصارى دمشق في كنيسة يوحنا المعمدان، وهذا ما حدث في الأندلس إذ امتثل المسلمون الفاتحون لقرطبة للمبدأ نفسه، فشاطروا نصارى قرطبة كنيسة كنيستهم العظمى التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة، تاركين لهم النصف الآخر يقيمون فيه شعائرهم الدينية. من هنا كانت بداية قصة المسجد الجامع في قرطبة.

بعد هذا العرض التاريخي الوجيز، شعر فردريكو أن عليه أن يعزز معلوماته بصور حية. فقال لي: لنمش معاً في الأحياء التي تحيط بالجامع، فتعاين الأهمية التي لعبها المسجد في المدينة. فكما ترى الآن، كانت الأسواق عامرة بالثياب والديباج، والدكاكين زاخرة بالعطور والطيب، وحوانيت الصاغة والعطارين، هي ذاتها كالتى تراها أمامك الآن، مع فارق أنواع البضاعة وأذواق الناس، وغياب السياح. وكانت تتفرع من ساحة الجامع طرق المدينة الرئيسية ودروبها وشوارعها التي تفضي إلى أبواب الأسوار الخارجية. ولا تنس يا صديقي العربي، أن جامع قرطبة من الوجهة الفنية أروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصور الوسطى. كذلك لا تنس، أنه كان أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية، ويفد إليها الطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي للدرس والتحصيل، كما كان مركزاً للحج في الأندلس، يفد إليه المسلمون لزيارته والتبرك ببقعته والاحتفال فيه ببليلة القدر. فاشتهرت مدينة قرطبة بسببه حتى قيل أنه ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه.

ولم أخف على فردريكو، وأنا أستمع إليه وقد صار بيننا نوع من الألفة، شعوري بشيء من الافتخار كعربي يحمل تاريخاً مثقلاً بالمجد على كتفيه. فقلت له بشيء من المرح: ألم يبالغ العرب في عظمة هذا الجامع، كما يبالغ الأدلة السياحيون من أمثالك في وصفه اليوم؟

ابتسم فردريكو، وكان هذه اللفتة قد أعجبت من عربي، فقال: صحيح أن مؤرخي العرب في الأندلس قد بالغوا في وصفهم له، فصوروه تصويراً أقرب إلى الخيال، وعظموه وبجلّوه. لكن في زمانه، كان في الواقع، المثل في العظمة والاتساع من كثرة الزخارف والجمال. ألا تسامح بني قومك إذا هم بالغوا في الإطناب؟ أليست هذه صفة عربية؟

قلت لفردريكو: ما دمنا في حديث المبالغات التاريخية، فهل هناك قصص إسبانية متداولة عن جامع قرطبة، قد تستطرفها؟

أجاب فردريكو: لقد دخل المسجد الجامع في قرطبة فولكلور موضوعات القصص الشعبي الأندلسي الذي تواتر على مر العصور وأورده المؤرخون نقلاً عن أسنة العامة. فمما يتداوله الإسبان من هذا الفولكلور، أنه لما دخل ألفونسو الأول ملك أرغون مدينة قرطبة في العام 1087، دخل النصارى هذا المسجد بخيلهم. فأقاموا به يومين لم تُبل دوابهم أو تروث حتى خرجوا منه. وهناك حكاية أخرى يرويها الإسبان، تدل على قداسة البقعة التي بُني فيها الجامع. تقول الحكاية إن موقع الجامع كان حفرة كبيرة يرمي فيها أهالي قرطبة قماماتهم. فلما قدم النبي سليمان بن داود ودخل قرطبة، قال للجن: ارموا هذا الموقع وعدلوا مكانه، فسيكون فيه بيت يُعبد الله فيه. ففعلوا ما أمرهم به وبني الجامع بعد ذلك.

ولما رأى فردريكو بعض الدهشة على وجهي لدخول الجن إلى حكايات الفولكلور الأندلسي الإسباني، أردف قائلاً: حتى لا تضيع في ذهنك حقيقة عظمة جامع قرطبة، فتختلط عندك الحقائق بالأساطير، فإن جامع قرطبة كان موضع تباهي وفخر أجداد المسلمين والمسيحيين على السواء، إذ ينظر إليه على أنه من الآثار الجليلية التي تزدان بها الأندلس. ثم إنه كان يُعد أعظم جامعة غربية في أوروبا في العصر الوسيط. وقد قيل إن الراهب جيربير الذي أصبح فيما بعد البابا سيلفستر الثاني، أتم دراسته في جامع قرطبة. كذلك كثيرون من نصارى الأندلس من أهل الذمة قد تعلموا فيه علوم العربية، وتثقّفوا بالثقافة العربية، إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين في حياتهم، رغبة في تقلد المناصب الكبرى في الإدارة ودواوين الحكومة.

21 كانون الأول 1998

المفكرة الأندلسية (2):  
يوميات دمشقي في قرطبة  
العز العربي نصفه جامع نصفه كنيسة!

Page 4:6

## البحث عن أصحابي

قلت لفرديكو: لنعد إلى البحث عن أصحابي، عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر، من الذين ادعيت أنك لا تعرفهم، فإذا بهم أسياذ التاريخ الذي ترويه. ولعل حكايتهم تمكن في الحديث عن بناء الجامع – الأسطورة – الذي تحول عندي، بعد زيارتي الطويلة له اليوم، إلى رابوة بحيث من الممكن استنتاج أعمده وأوقته وسقوفه وماذنته. فلا بد أن تروي لنا هذه الحجارة والأخشاب قصة العز العربي في الأندلس بالأمس، وقد أضعناه اليوم.

قال فرديكو: حتى نتحدث عن بناء المسجد، لا بد من أن نتذكر عظمة قرطبة وما بلغته في زمن الخلافة الأموية من عمران. وظلت قرطبة في ازدهار حتى سقطت الخلافة الأموية، ودخلها البربر عام 1010، وعاثوا في أرضها سفكاً وفساداً. بعد ذلك انطفأت شعلتها، وانتقلت مكانتها السامية إلى مدينة إشبيلية.

أما قصة بناء الجامع، فهي قصة طويلة، استمرت عشرات السنين، لكن بدايتها هي الأهم. فلما فتح المسلمون قرطبة، اختاروا كنيستها الكبرى المعروفة بـ «سان فنسان» التي تقع داخل المدينة نفسها لإقامة مسجدهم، شاطروا نصارى قرطبة هذه الكنيسة. وأقاموا في شطرنهم مسجداً بسيطاً، وليس بينهم من كان عارفاً بفن البناء. فأسس حنش بن عبد الله الصنعاني قبلته بيديه.

ولما وصل عبد الرحمن الداخل وأسس دولة بني أمية كان قد ضاق المسجد البسيط الساذج البناء بعدد المصلين، فدعا رؤساء نصارى قرطبة إلى مقابلته وساوهم في بيع نصيبهم من الكنيسة ليدخله في المسجد وأوسع لهم البذل وفاءً بالعهد الذي صولحوا عليه. فطلب النصارى لقاء ذلك بناء كنيسة لهم خارج الأسوار. فوافق عبد الرحمن الداخل على ذلك، وشرع في هدم الكنيسة والمسجد القديم، وبنى جامع قرطبة بأسلوبه الجديد في العام 785م. ويقال إنه أتمه في عام واحد.

## الكنيسة – الجامع

لما سقطت قرطبة في يد فرناندو الثالث، ملك قشتالة في حزيران من العام 1236، كان المسجد الجامع في قرطبة على حاله، كما تركه المرابطون والموحدون. لكن سرعان ما تحول هذا البناء الشامخ إلى كنيسة عرفت بكنيسة «سانتا ماريا العظمى». لكن الإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأوا يبدلون في بنية هذا الأثر الإسلامي بإضافات وتغييرات أساسية، التي عبر عنها شارلكان بقوله: «لو كنت قد علمت بما وصل إليه ذلك، لما كنت قد سمحت أن يمس البناء القديم. لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان، وما هدمتموه فريد من العالم أجمع».

صحيح أن إقامة كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع قد شوّهت البناء القديم، وقضت على الوحدة المعمارية للمسجد. إلا أنه ما انتهى بناء هذه الكاتدرائية في العام 1599، والتي أشرف على بنائها ثلاثة مهندسين معماريين من عائلة واحدة، هم هرنان رويث، الأب والابن والحفيد، حتى بدت أثراً معمارياً مختلفاً، بعد أن أقيم على جدران الجامع في الداخل مصليات عديدة ذات طابع يقتفي طراز عهد النهضة.

وفي العام 1682 أقام الأسقف فراي ألونسو دي مدينا، المصلى المعروف بـ «لاكونسبسيون» وزينه بتمائيل رائعة أنجزها المثال الفرناطي بدرو دي ميئا. وفي العام 1705 أقيم مصلى آخر عُرف بـ «سانتا تيريزا» أو مصلى الكاردينال سالازار. وفي القرن الثامن عشر انتزعت سقوف الجامع الخشبية بعد أن تآكلت بفعل الزمن، وأقيم بدلاً منها قبب جصية. وفي غضون القرن التاسع عشر أجريت في الجامع عدة إصلاحات، أهمها ترميم المحراب. وأعلن المسجد الجامع في العام 1882، أثراً قومياً، وعهد بإدارته إلى مدرسة العمارة في مدريد التي تابعت المحافظة على ترميمه من مختلف الجهات. وفي العام 1994، أعلنت منظمة «اليونسكو»، قرطبة وجامعها ومن ضمنه كاتدرائيتها، من التراث العالمي.

21 كانون الأول 1998

المفكرة الأندلسية (2):  
يوميات دمشقي في قرطبة  
العز العربي نصفه جامع نصفه كنيسة!

Page 5:6

## الخليفة الوراق

ركبتُ إحدى عربات الخيل التي تنتشر في الأحياء المجاورة للجامع في قرطبة من التي يستأجرها السياح، وسألت السائس أو العريجي – الدليل الذي كان من حظي أنه يجيد الإنكليزية – السياحية مما سهل عليّ إمكانية التخاطب معه، عن اسمه. فقال: ألونسو. قلت لألونسو (وهو اسم اسمعه للمرة الأولى): خذني في جولة في الأرفقة الخلفية للمدينة القديمة وأرني الدكاكين التي لا يرغب بها السواح التقليديون عادة.

احترت ألونسو كما يبدو من فهم طلبتي، وصلب يده على وجهه، وأرخص العنان لحصانه، وسار. وبعد أن انطلق استدار نحوي وسألني عن طبيعة مهنتي. ولما قلت له بأنني صحافي عربي، هز برأسه، وكأنه يوحي لي بأنه قد فهم مرادي. لكن عندما أخذ يشرح لي أسماء الأبنية والشوارع التي نمر بها وتاريخها بأسلوب السرد السياحي التجاري، عاد وسألني عند أي دكان أريد أن أقف، وكلها بالنسبة إليه متشابهة في محتوياتها وبضائعها وأسعارها، وحتى بزبانها. وفي الواقع لم أكن أبحث عن دكان معيّن، بقدر ما أردت أن أتفادى أمكنة السياحة العامة. فقررت أن أحسم حيرة السائس، وحيرتي، فقلت له: هل تعرف مكتبة أو دكاناً يبيع الكتب القديمة أو المخطوطات؟ فهتف العريجي السائس صائحاً: سي سينيور!

وقفت العربية في زقاق ضيق أمام دكان ذي بابين خشبيين ضيقين، وقفز ألونسو من العربية التي سدت الطريق وقال بصوت مرح: لعلي وجدت لك ضالتك. كان الدكان – المكتبة، مكان قليل العرض، طويل كعمر، ينتهي إلى باحة (أو أرض ديار، كما نسميها نحن في الشام) في وسطها فسقية ماء وأشجار حمضيات قصيرة، وإلى جانبها طاولة قديمة وكبيرة تجلس ورائها سيدة، لم أتبين ملامحها في البداية. حبيت السيدة عندما دخلت إلى الباحة في آخر المكتبة، وقلت لها إنني صحافي عربي قادم من بيروت، أريد أن أتفرج على ما عندها من كتب أو مخطوطات عن تاريخ الأندلس، لعلي أجد على رفوفها أبطال الذين أبحث عنهم: عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر، بعد أن استفسرت عنهم في المدينة، ولم أجد لهم أثراً. حتى إن بعض من سألت أنكر وجودهم.

ابتسمت السيدة لحكايتي وعرفت بنفسها قائلة بأنها درست في مدريد في «الاسكوريال» علم المكتبات، وأنها عملت في مكتبات عدد من الجامعات الإسبانية، حتى عادت إلى قرطبة لتستقر في هذا الدكان – المكتبة التي ورثتها عن أبيها الذي ورثها بدوره عن جده. ويبدو أن العائلة كلها عائلة «مكتبية». وسألته عن اسمي، فقلت لها: رياض. فابتسمت وقالت يعني «كارمن» بالإسبانية (أي حديقة)، إلا أنه يستعمل في الإسبانية للإناث. قلت لها: صحيح أن رياض اسم بالعربية يستعمل للذكور، لكنني أعرف عدداً من السيدات الدمشقيات من جيل والدي، يحملن اسم رياض وعصام وغيرهما من أسماء الذكور، إلا أنه تقليد يبدو أن الجيل الجديد قد تخلّى عنه. لما وجدت نفسي في متاهة الحديث عن الأسماء العربية والإسبانية، سألتها: لكن ما اسمك؟ قالت: تيريزا، ولكن ينادونني طوطة. قلت: ماذا؟ قالت: طوطة. قلت: هل هذا هو اسم الدلع الذي تحببته. قالت: لا على العكس. إن اسمي الحقيقي هو طوطة، ولكن عندما كبرت غيرته إلى تيريزا لأنه اسم غير مألوف أو منتشر في إسبانيا ولا يصلح إلا للصبايا.

في هذه اللحظة بالذات، أمعنت النظر بالسيدة، فإذا بتقديري هي امرأة في منتصف الأربعينيات على قسط وافر من الجمال، ذات شعر أسود طويل وقيافة إسبانية سمراء. وبالطبع لا يسأل الرجل عادة المرأة عن عمرها، وخاصة إذا كان غريباً. فسألته يبدو وكأنك تعرفين العربية؟ قالت: لقد تعلمتها في دراستي بـ «الاسكوريال» بحكم تخصصي الأندلسي. ولكن لا أجيد منها إلا الفصحى، التي تعينني على قراءة عناوين الكتب والمخطوطات.

قلت لها: لقد استوقفتني اسمك الغريب هذا. (وكنيت أريد أن أقول لها بأن جمالها قد استوقفتني أيضاً). هل من سر أو حكاية عربية – أندلسية فيه؟ قالت: كان والدي مدرساً للتاريخ في مدارس قرطبة ووراقاً يعمل مع جدي في هذا الدكان، فأراد أن يطلق عليّ، وكنيت ابنته الوحيدة – اسماً تاريخياً، فاختار اسم طوطة. وقبل أن تسألني عن طوطة هذه، أقول لك إنها الملكة المسيحية التي جاءت مع حفيدها «شانجة» المعروف بـ «سانشو السمين» إلى قرطبة في العام 958

تطلب المعونة من عبد الرحمن الناصر (أحد الذين تبحت عنهم) لاستعادة عرش حفيدها في ليون وقشتالة بعد أن عزله أردون الرابع. وعقد عبد الرحمن الناصر مع الملكة طوطة حلفاً. وأرسل جيشاً استطاع أن يعيد حفيدها شانجة إلى عرشه، بعد سنتين وذلك في العام 960 . وكانت أول ملكة مسيحية تتحالف مع أمير مسلم. انتظرت السيدة طوطة قليلاً، بعد هذا التفسير التاريخي لاسمها، وقالت لي: إذا كنت تبحت فعلاً عن كتب أو مراجع عن حكام قرطبة أو الأندلس، وعن أبطالك «الثلاثي عبد الرحمن» فالأجدر بك أن تبحت عن رابع لهم، هو في رأيي الأهم. لأنه هو الذي أعطى قرطبة عظمتها الثقافية ومركزها العلمي وقيمتها الفنية. وهو في صنعتنا الوراق الأول بين خلفاء الأندلس، وصاحب الحركة العلمية في قرطبة في عصر بني أمية. إنه الحكم المستنصر.



---

| [Profile](#) | [Catalogue](#) | [Posters](#) | [Search](#) | [E-mail Us](#) | [Contact Us](#) | [Home](#) | [Annuqad](#) | [Weekly Articles](#) |

21 كانون الأول 1998

المفكرة الأندلسية (2):  
يوميّات دمشقي في قرطبة  
العز العربي نصفه جامع نصفه كنيسة!

Page 6:6

## الهرب من طوطة

قلت لطوطة: اشرح لي حكاية الخليفة الورّاق هذا؟

قالت: كانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كُتَباً، وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب. وهكذا انصرف أهل قرطبة إلى اقتناء الكتب، حتى كانت الكتب من أروج متاجرها (ولم تعد هكذا اليوم) حتى قيل: «إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه، حُمِلت إلى قرطبة حتى تُباع فيها. وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته الموسيقية حملت إلى إشبيلية».

جاءت هذه المقولة المتداولة نتيجة تشجيع أمراء بني أمية للثقافة والفنون والآداب. فقد احتضنوا الشعراء والكتّاب واهتموا باقتناء الكتب النادرة. لقد بعث الأمير عبد الرحمن الأوسط عباس بن ناصح الحريري، أمين مكتبته والرجل الذي أسس مكتبة قرطبة، إلى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة. فأتى له حريري الأندلس من السند والهند وغيرها من البلدان بأمهات المخطوطات والكتب. فكان أول من أدخلها إلى الأندلس، وعرف أهلها بها.

وكان الأمير الحكم المستنصر الذي تولى الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر، أكثر الخلفاء حباً للكتب، حتى قيل إنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، وقدرت بأربعمئة ألف مجلد. وأنهم لما نقلوها صرفوا ستة أشهر في نقلها. وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي، بإذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه. وكان ذا غرام بها. ويقول معاصروه إنه قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق، مهما كان موضوع الكتاب. وكان يُعنى بكتابة نسب المؤلف ومولده وتاريخ وفاته. وكان الحكم محباً للعلماء، مكرماً لهم، يبعث في استفادتهم من المشرق ويرحب بهم ويكرم مثواهم ويرفع منازلهم عنده. وكان يُعين الكتّاب بالمال على كتابة مؤلفاتهم. فجمع في قصره الحدّاق في النسخ والمهرة في الضبط والمجيدون لفن تجليد الكتب. فاجتمعت له في قصره في قرطبة خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده.

وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار، فيزودهم بالأموال الطائلة لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه من قبل. وبعث في طلب كتاب «الأغاني» إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، ودفع إليه فيه ألف دينار. فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يصدر في بغداد.

## العرب لم يغزو الأندلس!؟

توقفت طوطة عن الحديث، وتطلعت إليّ وفي عينيها شيء من الأسى، وقالت لي: هذه هي أمجاد قرطبة الأموية التي يجب أن تكتب عنها، والتي تعادل أمجاد العمارة الإسلامية في المسجد الجامع. لكن الحجر يرد عاديّات الزمن، أما الورق فيبلى. عليك بالمستنصر، وأجل الداخل والفتاح والناصر.

بدأت طوطة في هذه اللحظة، وقد تدفقت حماسة في حديثها، أكثر جمالاً مما هي عليه. فقلت لها محاولاً تطويل الحديث: أليس عندك كتاب تبينه لي أحمله ذكرى من قرطبة ومنك وأنا عائد إلى بيروت؟

ابتسمت طوطة بشيء من الخبث وقالت: نعم عندي لك كتاب. ولكنه بالإسبانية، ولا أعرف إذا كان له ترجمة بالإنكليزية أو الفرنسية أو العربية. الكتاب ليس بقديم، إذ صدر في العام 1974، بعنوان: «الثورة الإسلامية في الغرب» (2) للمؤرخ الإسباني اغناسيو أولاعي. وفحوى الكتاب الذي يشكل رؤية تاريخية مختلفة، أن العرب لم يغزوا الأندلس بقوة السلاح، إنما بقوة الأفكار ولو غزا العرب إسبانيا عسكرياً لما خمرت الخميرة الإسلامية العجين الأندلسي، لتخرج تلك الحضارة الأندلسية الفريدة في التاريخ والتي يعود إليها انتشار الغرب من الظلمة في عصر النهضة، فتاريخ العرب في إسبانيا هو ثمرة جدل وتطور الأفكار، وليس تكتيكات أمراء الجند المدججين

بالسلاح.

اشترت النسخة الإسبانية من هذا الكتاب، ولما أدارت طوطة ظهرها، ألقته فوق أحد الرفوف وودعتها على عجل. ولما استغربت طوطة الأمر، قلت لها: إذا كان العرب لم يغزوا الأندلس؛ فماذا أفعل أنا هنا؟ عليّ الهرب فوراً من قرطبة، إذ ليس لي من عبد الرحمن واحد ليحميني وأن العزّ العربي الذي أبحث عنه والذي أسسوه ليس إلا أعمدة من الوهم. وخفت. وأسرعت إلى عربة أونسو قائلاً له بلهفة: ارفع الكبراج واضرب حصانك حتى يسرع أيها القرطبي. إنهم يقتلون تاريخ الأمجاد العربية، ويقتلون أبطالها. أليس كذلك؟ وبالطبع لم يفهم أونسو الموضوع، وانطلقت العربة والحصان يسهل، حتى خلت أنني أسمع جواد عبد الرحمن الداخل وهو يحمم فوق أسوار قرطبة<sup>(3)</sup>.

- (1) راجع «المفكرة الأندلسية (1): يوميات أموي في غرناطة – محاولة القبض على مؤسس الذل العربي». «النهار» – الإثنين 2 تشرين الثاني 1998.
- (2) صدر هذا الكتاب بالعربية مختصراً بعنوان: «العرب لم يغزوا الأندلس – رؤية تاريخية مختلفة» لإسماعيل الأمين، عن شركة رياض الرئيس للكتب والنشر – لندن 1991 .
- (3) لمزيد من المعلومات عن قرطبة راجع «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» لمؤلفه الدكتور السيد عبد العزيز سالم – دار النهضة العربية – بيروت 1988.



[Back to Beginning of Article](#)

---

[Profile](#) | [Catalogue](#) | [Posters](#) | [Search](#) | [E-mail Us](#) | [Contact Us](#) | [Home](#) | [Annuqad](#) | [Weekly Articles](#) |